في رأينا ـ خلافاً للرأي السائد حول شخصية حلمي بين النقاد العبريين ـ شخصية أوري هي الاكثر تكاملاً، وليست شخصية حلمي. قد يكون سبب ذلك هو المقاربة القائمة بين مواقف وعالم غروسمان (مواقف غروسمان التقدمية والصائبة) والبطل اوري الذي يتحول، في احيان، الى «لسان» شبيه بلسان الكاتب ومواقفه. هذا الرأي يدفعنا الى خوض تساؤلات عدة، أهمها هو: اننا نبحث، بعد قراءة العمل الادبي، عمّن تمثل شخصية العربي في الرواية، ولماذا هذا «الشيء» دون غيره ؟ ويندر، في حالة الصراع (كالصراع العربي ـ الاسرائيلي)، وجود شخصية ادبية غير منمّطة ومقولبة. فالصراع يفرض نفسه ويجري تغييرات في توجهات الكاتب (مهما كانت مواقف الكاتب: يمينية، تقدمية، يسارية، الخ). وعادة ما يكون التأثير في رسم الشخصية هو لصالح الصراع. والصراع، بحد ذاته، لا يخلق شخصيـة طبيعية من الطرف الآخر. صحيح ان الصراع يغذّي الادب ويمده بمواضيع جمّة، لكن الصراع يخلخل قضية التواجد ويحوّل بعض الشخصيات، في احيان، الى ابواق لتفريغ آراء الكاتب، اكثـر ممـا يخلق شخصيـات طبيعيـة متكاملة. لذا، تصبح القولبة (بمفهوم معيّن) سمة واضحة للشخصيات التي تعالج من قبل الطرف الآخر، حتى لو كانت الشخصية المصورة تمثل نفسها فقط. لذلك تنشأ مشكلة عند دراسة الادب في حالة الصراع، وهي ان كل الشخصيات من الجانب الآخر ـ مع ايجابياتها في احيان ـ هي شخصيات نمطية ومقولبة، وحتى مفبركة أحياناً.

وغروسمان، خلافاً لغيره من الكتاب العبريين، يذهب الى الثقافة العربية ويستقي ويستغل الكثير من معطياتها؛ مثلاً: اسماء النباتات، المناطق، التراث، انماط تفكير صائبة في احيان ومقولبة في مرات، حكايات وخرافات، اجواء، تفاصيل حياتية هامشية تضفي مصداقية على الشخصية المصورة واشياء اخرى. كل هذا يعطي ايجابية لما قام به غروسمان ويؤكد فكرة أهمية الذهاب الى الاصول والاستفادة منها. فالرواية تستمد تقنيتها من الغرب (كغالبية الادب العبري )؛ اما التفاصيل، فهي مستقاة من واقع الحياة هنا ومن المناطق المحتلة.

تتحرك رواية «ابتسامة الجدي» بين الواقع المحسوس والملموس وبين الهذيان؛ الهذيان الذي يتحول الى جزء اساسي من هذا الواقع. واصدق تمثيل على هذا القول هو شخصية حلمي اكثر من غيره. فما الذي تعكسه وتمثله شخصية حلمي ؟

تثير شخصية حلمي اشكالات عدة: اولها، انها جاءت لتمثل نفسها، ومع ذلك ظلت شخصية مقولبة يقذف الكاتب فيها الكثير من الامور الغريبة: العيش في مغارة، الهذيان، زيجاته من النساء الحاملات، خلوده الغريب للصمت، خموله، الخ. كل ذلك يدفعنا الى الاعتقاد بأن شخصية حلمي لا تمثل فئة، او شريحة، معيّنة. وعلى افتراض انها تمثل، فمن ذا الذي تمثله هذه الشخصية الغريبة جداً ؟

مع كل القولبة التي تتموضع في شخصية حلمي ـ التي يقذفها الكاتب عليها ـ نرى ان شخصية حلمي تأخذ بعداً آخر. وقد يكون هذا سبباً لاعجاب النقاد العبريين بها. وهي انها شخصية اسطورية تحاول (بفوارق كبيرة في مدى النجاح الذي يحالف غروسمان) محاكاة شخصيات ماركيز، ولها هالة سحرية غرائبية.

نعتـرف بأن شخصية حلمي آسرة. لكنها ليست اكثر من وعاء لأسطرة العربي. وهي ليست شخصية حقيقية، أو ملموسة، على المستوى الواقعي، ولا يمكن ان تكون كذلك، خلافاً لما اثارته من ردود فعل فاقت، أحياناً، أهمية هذه الشخصية الحقيقية. أسطرة هذه الشخصية المركزية تقودنا